رابطة العالم الإسلامي
الأمانة العامة
الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

# قضايا الفُرقة والتعصّب والصراع في الثقافة الإسلامية من خلال نظرية الرموز الثقافية

إعداد

**الدكتور محمود الحبيب الذوادي**

أستاذ علم الاجتماع في الجامعة التونسية

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ - ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ
٢٨ - ٣٠ / سبتمبر / ٢٠١٤ م

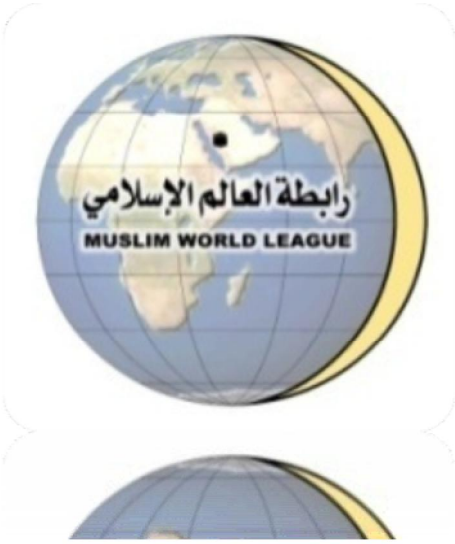


# رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

## تعريفات المفاهيم:

قبل تحليل ودراسة مفاهيم الفُرقة والتعصب والصراع في رؤية منظومة الثقافة الإسلامية، ينبغي لنا - منهجيـًا- القيام أولاً بتعريف كلٍّ من تلك المفاهيم؛ حتى تكون مقولة هذه الورقة واضحة المعالم على المستويين العام والتفصيلي، فالمفاهيم الثلاثة تصف طبيعة صنف من العلاقات السلبية بين الناس.

**فالفُرقة**: هي الانفصال وعدم الوحدة بين الناس.

**والتعصب**: هو غلوٌّ في التعلق بشخصٍ أو فكرٍ أو عقيدةٍ، بحيث لا يدع الفرد المتعصِّب مكانـًا للتسامح؛ الأمر الذي قد يؤدي بالمتعصبين إلى العنف والصدام بينهم.

**والصراع**: هو أحد أنماط التفاعل الاجتماعي الذي ينشأ من تعارض مصالح الأطراف المادية أو الثقافية.

**والصراع الاجتماعي**: هو الموقف الذي يهدف إلى الفوز على الآخرين المعارضين، أو الإضرار بهم أو بممتلكاتهم أو ثقافاتهم؛ مما قد يقود إلى تبادل الهجوم والدفاع.

## أصول تلك السلوكيات

فالفُرقة والتعصب والصراع كسلوكيات فردية وجماعية؛ ليست بالأمور الفطرية في الطبيعة البشرية، بل هي في المقام الأول سلوكيات مكتسَبة من المحيط

الاجتماعي الذي يُعلّم الأفرادَ والجماعاتِ والفئات والطبقات الاجتماعية أنماطَ تلك السلوكيات، إلى درجة تبنِّيها بالكامل والدفاع عنها من طرف أغلبية هؤلاء في بيئاتهم الاجتماعية، وتلعب المنظومات الثقافية للشعوب والأمم والمجتمعات والمجموعات البشرية الأصغر من ذلك؛ دوراً حاسمًا في ميلاد تلك السلوكيات وتطورها واستمرارها عبر الأجيال لعقود وقرون وحتى لآلاف السنين.

وبعبارة أخرى: فالثقافة هي مربَط الفَرس لفهم وتفسير معالم الفُرقة والتعصب والصراع في العالم البشري، ومن ثمّ، تأتي مشروعية التساؤل عن الأسباب التي تجعل عناصر المنظومات الثقافية هي الأساس في بروز ظواهر التعصب والفُرقة والصراع في وبين الجماعات والمجتمعات البشرية.

وبعبارة أخرى: لماذا تتصدر العوامل الثقافية بقيةَ العوامل الأخرى في التأثير على ميلاد وممارسة التعصب والصراع والفُرقة في دنيا الناس ؟

**أستعمل رموزاً ثقافية، إذن فأنا إنسان.**

ولفهم هذه العبارة؛ ينبغي التعرف أولا على معنى مصطلح المنظومة الثقافية عند الإنسان.

تفيد المنظومة الثقافية عندنا العناصر التالية: **اللغة والفكر والدين والمعرفة (العلم) والأسطورة والقوانين والقيم والأعراف الثقافية**، ونطلق على هذه المنظومة الثقافية مصطلح **الرموز الثقافية**، وهي مركزية في هوية الإنسان (الذوادي ٢٠١٠، ٢٠٠٦، Dhaouadi 2013)، ونظراً لتأكيدنا على أن التعصب والفُرقة والصراع كلها سلوكيات مرتبطة شديد الارتباط بالمنظومة الثقافية للناس والمجتمعات، فإن البرهان على مركزية الرموز الثقافية في الطبيعة البشرية يصبح أمراً مطلوبًا بإلحاح.

وللنجاح في إقامة الدليل على ذلك، نعتمد على الجمع بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية؛ إذ يَصعب التعمق في فهْم طبيعة تميّز الإنسان بمنظومة الرموز الثقافية عن بقية الكائنات الأخرى في غياب أي من هذين الصنفين من العلوم.

فلا يجوز -علمياً- تحليل ذات الإنسان وعمق كينونته دون الحديث عن العوامل البيولوجية والفيزيولوجية الجسمية عنده، كما لا تُقبل محاولة فهْمه بتهميش أو إقصاء أهم ما يميزه بطريقة فاصلة وحاسمة عن بقية الأجناس الحية الأخرى، وهي منظومة الرموز الثقافية: اللغة والفكر والدين والمعرفة (العلم) والأسطورة والقوانين والقيم والأعراف الثقافية، ويمكن صياغة كلمة الفيلسوف الفرنسي الشهير ديكارت: «أنا أفكر، إذن فأنا موجود»؛ لتصبح في طرحنا الفكري هنا: «أنا أستعمل رموزاً ثقافية، إذن فأنا إنسان».

### هل الإنسان كائن ثقافي بالطبع ؟

نجيب بنعم قوية: إن الإنسان كائن ثقافي بالطبع قبل أن يكون اجتماعياً، يستند هذا القول على ملاحظات رئيسة حول خمسة معالم ينفرد بها الجنس البشري عن غيره من الأجناس الحية الأخرى، وهي ملاحظات دقيقة تؤكد مركزية الرموز الثقافية في هوية الإنسان، وحسب علمنا، فهي ملاحظات جديدة تَوصّلنا إليها، لا نعرف إذا كان قد اهتدى إليها كلها أو إلى البعض منها علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع المعاصرون في دراساتهم للثقافة (الرموز الثقافية)، ومن ثَم، فهي **ملاحظات مستحدَثة الصنعة غريبة النزعة**، كما وصف ابن خلدون ابتكارَه لعلمه الجديد: «علم العُمران البشري» في مقدمته الشهيرة، ونوجز هذه الملاحظات والتعليقات عليها فيما يلي:

١- يتصف النمو الجسمي (البيولوجي الفيزيولوجي) لأفراد الجنس البشري ببطءٍ شديد مقارنةً بسرعة النمو الجسدي الذي نجده عند بقية الكائنات، ويصلح هذا لتفسير ظاهرة عجز الأطفال عن المشي المبكر أو البلوغ الجنسي المبكر أيضاً، كما هو الأمر عند صغار الحيوانات.

٢- يتمتع أفراد الجنس البشري عموماً بحياة أطولَ من معظم الحيوانات.

٣- ينفرد الجنس البشري بلعب دور السيادة (الخلافة) في هذا العالم دون منافسٍ له من باقي الأجناس الأخرى على وجه الأرض.

٤- يتميّز الجنس البشري بطريقة فاصلة حاسمة عن الأجناس الأخرى؛ بمنظومة الرموز الثقافية.

٥- يختص أفراد الجنس البشري بهوية مزدوجة تتكوّن من الجانب الجسدي من ناحية، والجانب الرموزي الثقافي (المذكور سابقاً) من ناحية ثانية، ويسمح هذا التصور الجديد بتغيير التصور التقليدي عن هوية الإنسان- والمنادي بأنه جسد وروح - لتصبح هويته جسداً ورموزاً ثقافية؛ فيضفي ذلك شفافية أكبر لفهم وتفسير السلوكيات البشرية الفردية والجماعية؛ مثل الفُرقة والصراع والتعصب المتأثرة في العمق بمنظومة الرموز الثقافية ذات الصدارة المركزية في هوية الإنسان.

**والتساؤل الآن هو: هل من علاقة بين تلك المعالم الخمسة التي يتميّز بها الإنسان؟**

أولاً: هناك علاقة مباشرة بين المَعْلمَين ١ و٢؛ إذ أن النمو الجسمي البطيء عند أفراد الجنس البشري؛ يؤدي بالضرورة إلى حاجتهم إلى معدل سن أطول لتحقيق مراحل النمو والنضج المختلفة المتعددة المستويات، فالعلاقة بين الاثنين علاقة السببية.

**ثانيـًا**: أما الهوية المزدوجة التي يتصف بها الإنسان؛ فإنها أيضـًا ذات علاقة مباشرة بالعنصر الجسدي (المَعْلم ١) للإنسان، من ناحية، والعنصر الرموزي الثقافي (المَعْلم ٤)، من ناحية أخرى.

**ثالثـًا**: عند البحث عن علاقة سيادة (خلافة) الجنس البشري بالمعالم الأربعة الأخرى، فإن المَعْلَمين ١ و٢ لا يؤهلانه على مستوى القوة المادية، لكسب رهان السيادة على بقية الأجناس الحية، فالإنسان أضعف جسديـًا من العديد من الكائنات الأخرى، ومن ثم، يمكن الاستنتاج بأن سيادة الجنس البشري ذات علاقة قوية ومباشرة بالمَعْلمَيْن ٥ و٤ (الهوية المزدوجة والرموز الثقافية)، والعنصر المشترك بين هذين المَعلميْن هو **منظومة الرموز الثقافية**، وهكذا يتجلى الدور المركزي الحاسم لمنظومة الرموز الثقافية في تمكين الإنسان وحده من السيادة في العالم، أي: أن الجانب غير المادي من الإنسان) الرموز الثقافية (هو الذي يؤهله للسيادة وحده على بقية الكائنات الفاقدة لذلك النوع من الرموز الثقافية التي يتميز بها الإنسان.

**الرموز الثقافية لا وزن لها ولا حجم:**

ونحن لا نقول بالطريقة التقليدية التي ترى أن الرموز الثقافية غير مادية بمعنى أنها عناصر روحية؛ بل نقدم تصوراً جديداً ملموسـًا يفسر خُلُوَّها من اللمسات المادية، فعناصر الرموز الثقافية كاللغة والفكر والدين؛ هي عناصر بشرية لا وزن لها ولا حجم (بالمعنى المادي للأشياء المادية)، إذ أن هذه الأخيرة لابد من أن يكون لها وزن وحجم مهما كانت صغيرة وضئيلة، وهذا يعني في نهاية المطاف أن الجانب غير المادي (الرموزي الثقافي) هو بيت القصيد في كينونة الإنسان، وهو ما تُلح على أهميته الكبرى معظمُ المدارس الفلسفية البشرية عبر العصور والديانات (وفي طليعتها الإسلام)، وفقدان عالم الرموز الثقافية لعاملي

الحجم والوزن؛ يساعد أيضاً على تفسير سرعة التواصل المدهش اليوم بالكلمة المكتوبة والمنطوقة والصورة، مع ثورة الاتصالات (الفاكس والإنترنت والهاتف)؛ فالتواصل بتلك الوسائل **يلغي كُلياً عاملَيْ الوزن والحجم** من الأشياء المرسلة- مكتوبة أو منطوقة- ويفسر غياب الوزن والحجم؛ إمكانيةَ وضْعِ محتوى مئات آلاف صفحات المجلات والكتب والمجلدات في عدد قليل من الحاويات الإلكترونية الصغيرة جداً Flash Disks.

**رابعاً**: إن الرموز الثقافية تسمح **بتفسير المَعلمين ١ و٢**، وهو أمر يبدو للوهلة الأولى عجيباً وغريباً جداً لا لقراء هذا البحث فقط؛ بل للعامة والخاصة أيضاً؛ ونأمل أن يزول العجب بعد فهم تفسيرنا لهذا الأمر، وكما يقال: «إذا عُرف السبب بطُلَ العجب».

فالنمو الجسمي البطيء عند الإنسان؛ يرجع إلى أنه يشمل **جبهتين**: الجبهة الجسمية، والجبهة الرموزية الثقافية، خلافاً للنمو الجسدي السريع عند الكائنات الأخرى بسبب فقدانها لمنظومة الرموز الثقافية بمعناها البشري الواسع المعقد، والملاحَظ أن الأطباء وعلماء البيولوجيا لا يكادون يأخذون بعين الاعتبار جبهة الرموز الثقافية في دراستهم للإنسان؛ ومع ذلك يدَّعون أنهم ينتمون إلى العلوم الصحيحة، وكيف تكون هذه العلوم صحيحةً وهي تُهمِّش النظرَ إلى مركز هوية الإنسان (الرموز الثقافية)؟!

فمن الأمثلة المذكورة حول مركزية الرموز الثقافية في هوية الإنسان، يجوز ابتكار مفهوم جديد نسميه تثقيف البيولوجيا Culturobiology الذي يعني أن الرموز الثقافية تؤثر على بيولوجيا الإنسان، وفي الختام: يلخص الرسمُ القادم مركزيةَ الرموز الثقافية في ذات الإنسان، فيعطي بذلك مشروعية قوية لفكرتنا القائلة إن الإنسان كائن ثقافي بالطبع، ويعني ذلك أن مقولة منظومة الرموز الثقافية

تمثل **نظرية**؛ لأن العلوم الاجتماعية تُعرِّفها بأنها إطار فكري يسمح بتفسير ظواهر فردية واجتماعية في سلوكيات الناس وحركية المجتمعات والحضارات البشرية (Encyclopedia of Sociology 1974, Turner 2001)

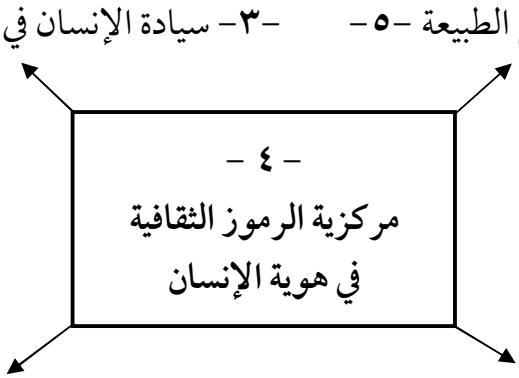


## اللغة ونشأة الثقافة في المجتمع البشري

بعد الشرح العقلي القائل إن منظومة الرموز الثقافية هي خاصية إنسانية بامتياز؛ نحتاج لمتابعة التحليل العقلي بخصوص معرفة جذور ميلاد منظومة الرموز الثقافية عند الإنسان وحده، وأسهل منهجية لهذا: التعرف على أهم عنصر في منظومة الرموز الثقافية يكون أكثر ترشحاً كعاملٍ حاسمٍ لميلاد هذه المنظومة الثقافية المميزة للجنس البشري، فتحليل طبيعة كل العناصر المكوِّنة لمنظومة الرموز الثقافية؛ أدَّى بنا إلى اعتبار اللغة البشرية- في شكليْها المنطوق والمكتوب- المؤهَّلةَ وحدها لبروز منظومة الرموز الثقافية عند الإنسان، فلا يمكن تخيُّلُ وجودِ بقية عناصر الرموز الثقافية- كالدين والعلم والفكر- دون حضور اللغة البشرية في شكلها المنطوق على الأقل، ومن ثَم جاء ت مشروعية طَرْحِنا لأن **اللغة هي أم الرموز الثقافية جميعاً**.

ونظراً لمركزية اللغة المنطوقة والمكتوبة في نشأة منظومة الرموز الثقافية، فإن وصْفَ الإنسان بأنه حيوان ناطق؛ وصْفٌ مشروعٌ جداً؛ لأن اللغة المنطوقة والمكتوبة هي أكثر ما يميز الجنس البشري عن بقية الأجناس الأخرى ويعطيه السيادة عليها، ورغم مركزية اللغة في هوية الإنسان - وبالتالي في بروز منظومة الرموز الثقافية في المجموعات والمجتمعات البشرية - فإن أشهر تعريف لمفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة؛ لا يَذكر اللغة كعنصر مركزي وأساسٍ في منظومة الثقافة، فعالِم الأنثروبولوجيا البريطاني إدوارد برنارد تيلر[١٨٧١] يُعرِّف الثقافةَ Culture بأنها «ذلك الكلّ المعقّد الذي يتضمن المعرفةَ والعقيدةَ والفنَّ والأخلاقَ والتقليدَ وأي مقدرات وعادات يكتسبها الإنسان كعضوٍ في المجتمع».

يتمثل قصور هذا التعريف الكلاسيكي للثقافة؛ في كونه لا يشير إلى اللغة ولا يعطيها الصدارة في مكونات منظومة الثقافة، والحال أن اللغة هي مُنشئ ظاهرة الثقافة نفسها كما سبق، أي أن العلاقة علاقة عضوية بين اللغة ومنظومة ثقافتها عند بني البشر، ومن ثَم يتَّضح قصورُ تعريف مفهوم الثقافة- الذي **لا يتضمن** صدارةَ اللغة- في تعريف مفهوم الثقافة البشرية [White 1973].

يتبين مما سبق أن نظريتنا عن الرموز الثقافية؛ ترتكز على أن الثقافة هي الجانب الفيزيولوجي غير البيولوجي لهوية الإنسان المزدوجة [الرموز الثقافية والجسم] كما في الرسم السالف، وأن جانب الرموز الثقافية هو بيت القصيد في هوية الكائن البشري، أي أن هيمنته على بقية الكائنات الحية الأخرى وسيادته عليها؛ تأتي من الجانب غير المادي في هويته المزدوجة (الرموز الثقافية)، وأن اللغة المنطوقة والمكتوبة هي مصدر تميُّز الجنس البشري عما سواه بمنظومة الثقافة، ومن ثم، **فالإنسان ليس حيوانًا ناطقًا فحسب** كما قال قدماء الفلاسفة؛

**بل هو أيضاً كائن رموزي/ ثقافي بالطبع**، وبعبارة أخرى، فإن تميزه عما سواه من الكائنات الأخرى بالقدرة على استعمال اللغة منطوقة ومكتوبة؛ **أهّله** ليكون وحده مخلوقاً رموزياً ثقافياً بالطبع، وبمصطلح العلوم الاجتماعية الحديثة، يسهل القول إن علاقة الارتباط correlation قوية جداً بين اللغة المنطوقة والمكتوبة عند البشر من جهة، وحضور ظاهرة الثقافة في المجتمعات الإنسانية من جهة ثانية.

## القرآن الكريم ومركزية الرموز الثقافية في الإنسان

لا تستند مقولة «الإنسان كائن ثقافي» على منهجية تحليل العقل فحسب؛ بل على ما يتضمنه تراث النقل للثقافة الإسلامية وفي طليعتها القرآن الكريم، ونحاول هنا اكتشاف مركزية الرموز الثقافية في هوية الإنسان من خلال الآيات التي ورد فيها ذِكرُ السمع.

## مفارقات السمع والبصر عند الناس

من اللافت للنظر أن عامة الناس وخاصتهم في المجتمعات البشرية؛ يعتبرون البصر أهم من السمع، فينظرون إلى إعاقة العمى على أنها أخطر وأبشع من إعاقة الصمم، وتفسير هذا السلوك: أن العمى ظاهرة فيزيولوجية مادية تراها عيون المبصرين، بينما الصمم لا يتجلى فيزيولوجياً ومادياً للناظرين؛ الأمر الذي جعل معظم الناس يميلون إلى اعتبار حاسة البصر أكثر أهمية وقيمة من حاسة السمع، وهي رؤية جماعية شعبية لا تتناقض مع التحليل الموضوعي للظاهرة فقط؛ وإنما تتناقض أيضاً مع ما تشير إليه الآياتُ القرآنية التي تتحدث عن السمع والبصر.

وننبه هنا على أن قيمة الأشياء لا تأتي فحسب من طبيعتها الذاتية؛ وإنما أيضاً من استعمالها كواسطة لتحقيق أشياء أخرى، وينطبق هذا على حاسة

السمع في الإنسان، **فالأهمية العظمى لحاسة السمع عنده** لا تعود مباشرة إلى السمع نفسه؛ وإنما تأتيه بطريقة غير مباشرة من **منظومة الرموز الثقافية** (اللغة والفكر والدين والمعرفة (العلم) والقوانين والأساطير والقيم والمعايير الثقافية) التي ينفرد بها الإنسان عن غيره من الكائنات، إذ لو كان الأمر يرجع مباشرة إلى حاسة السمع فقط؛ لَمَا تأهل الجنس البشري وحده للسيادة في العالم، وهكذا يمكن صياغة الهوية المميّزة للإنسان في المعادلة التالية:

**الإنسان = الرموز الثقافية + السمع**

حيث لا تستطيع الاستعداداتُ والمؤهلاتُ الفطرية للرموز الثقافية في الإنسان أن ترى الضوء وتتطور وتبلغَ أشدها إذا كان الإنسان أصمَّ، وبعبارة أخرى، فلا وجود للإنسان ككائن ثقافي في الصميم بدون التفاعل بين عنصرَيْ الرموز الثقافية وحاسة السمع؛ اللذيْن يمثلان الركيزتيْن الأساس في تكوين الهوية الثقافية للإنسان.

## قصة فكرة العلاقة بين السمع والرموز الثقافية

اكتشفتُ العلاقة بين حاسة السمع والثقافة لدى الإنسان في العام ٢٠١٢م، حيث لاحظتُ أن ذكر السمع في آيات القرآن الكريم يتقدم على ذكر البصر، وأن صفة (سميع) لله تعالى تتقدم على صفة (بصير)، فكان القرآنُ المصدرَ الأول الذي ألهمني لأبحث في حكمة تقديم السمع على البصر في الآيات القرآنية، لأنني أبدأ أبحاثي انطلاقًا من ملاحظة الظواهر الميدانية في سلوكيات الأفراد وحركات المجتمعات، فتلك منهجية العقل في الثقافة الإسلامية، ولأنني أجْمعُ بين العقل والنقل في دراساتي وأبحاثي ومقالاتي؛ فقد دفعَتني الملاحظات حول الآيات القرآنية إلى محاولة فهْم الحكمة من تقديم السمع على البصر في سور القرآن الكريم، وأحاولُ كشفَ النقاب عنه في هذه الورقة.

### تفوّق السمع على البصر في القرآن الكريم

ثمة ١٤ آية ذُكر فيها السمع قبل البصر، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله عز وجل: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

فتقديم السمع على البصر ١٤ مرة في الآيات؛ يوحِي بأنه مقصود لا مجرد صدفة، ومن أهداف تقديم كلمات على أخرى في اللغة العربية: إبراز أهمية وأفضلية المتقدِّم على المتأخر، فتقديم كلمة السمع - كاسْمٍ أو فعلٍ أو وصْفٍ - على كلمة البصر، يشير إلى أن أهمية حاسة السمع تفوق كثيراً حاسةَ البصر.

### السمع أساس العلم

كما تحفَل الآياتُ القرآنية بكلمة «سميع» تسبق كلمة «عليم» كوصفين متلازمين لله سبحانه في ٣٠ آية، منها قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ٤]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقوله عز من قائل: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فتكرار صفة عليم بعد صفة سميع؛ توحي بأن العلم يعتمد دائماً على السمع، ومن ثَم، فالعلاقة بين السمع والعلم هي علاقة سببية.

وهذا أيضاً ما تؤكده مقارنةُ الأعمى بالأصم في ميدان كسب المعرفة والعلم، فبعض الأفراد المصابين بالعمى قادرون على أن يصبحوا علماء مفكرين مرموقين يُشار إليهم بالبنان، بينما لا تسمح للصم بالفوز في آفاق العلم والمعرفة، لأن الصمم يحرم الإنسان من تعلّم اللغة وبالتالي من منظومة الرموز الثقافية، والنماذج كثيرة على قدرة حاسة السمع على تمكين الأفراد في طلب العلم والمعرفة والتفوق فيهما بامتياز رغم العمى، وقد جاء في مقدمة ابن خلدون أن العدل أساس العمران، وبالمِثل يجوز أن نقول: السمع أساس العلم.

### السمع منبع ثقافة الإنسان

تكمُن أهمية حاسة السمع في كونه سبيلاً لتحقيق الطبيعة الثقافية للإنسان، فالسمع هو الوسيلة الأولى التي بها يستطيع الإنسان تعلّم اللغة والرموز الثقافية، وللتعرّف أكثر على وظيفة حاسة السمع في ميلاد منظومة الرموز الثقافية عند الإنسان والعلاقة العضوية بينهما؛ يَحسُن معرفةُ طبيعة اللغة التي نعتبرُها أُمَّ الرموز الثقافية جميعا، فابن جِنّي العالِم اللُّغوي العربي الشهير؛ يُعرّف اللغةَ على «أنها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم»، وهو تعريف دقيق جداً في جوهره، متناسق مع تعريفات الباحثين المعاصرين، والجميع يؤكدون على جانب الطبيعة الصوتية للرموز اللغوية، وهكذا تتجلى العلاقة الفطرية العضوية بين اللغة كأصوات، والأُذن كحاسة سمع لها، ومن الصعب تخيُّل ميلاد بقية عناصر منظومة الرموز الثقافية- كالفكر والدين والعلم والقيم- مع الغياب الكامل للغة كأصوات بشرية، فاللغة هي المنشئ والناقل للرموز الثقافية بين الناس في المجتمع وبين الشعوب والأمم والحضارات الإنسانية.

### الصمتُ عن الوظيفة الكبرى للسمع

يكاد معظمُ المفسرين للقرآن الكريم لا يذكرون شيئًا عن الحكمة من تقديم كلمة السمع على كلمة البصر في الآيات القرآنية، فيكتفي البعضُ منهم بذكر الآيات الـ (١٤) التي فيها ذِكرُ السمع قبل البصر، وأن الجنين في بطن أمه يسمع قبل أن يُبصر، وأن الإنسان لا يمكنه سماعُ صوتيْن مختلفين في آن واحد، بينما يمكنه إبصارُ أكثر من شيء في نفس الوقت، وبذلك نفهم الحكمةَ من إيراد السمع بالإفراد والأبصار بالجمع، فهذا الوصف لبعض معالم حاسة السمع؛ يُعتبر وصفًا موضوعيًا للسمع في حد ذاته، لكن يَصعبُ على المفسرين وغيرهم الاهتداءُ إلى **أهم وظيفة يؤديها السمع**؛ لا إلى شيء هامشي أو بسيط في الإنسان، وإنما إلى أهم شيء يتميز به الجنس البشري عن بقية ، وهو **منظومة الرموز الثقافية**.

يُفترضُ أن لهؤلاء جميعاً إدراكاً بوجود الرموز الثقافية عند الإنسان، فمثل هذا الإدراك العادي البسيط؛ لا يكفي لتفسير سبب تفضيل السمع على البصر في الآيات القرآنية، ففهْم ما وراء أفضلية السمع يحتاج إلى إدراكٍ معرفي إيبستيمولوجي عميق بالنسبة لمكانة منظومة الرموز الثقافية في هوية الإنسان، فنظرية الرموز الثقافية عندنا تُعلن أن الرموز الثقافية هي بيت القصيد في كينونة الإنسان؛ الأمر الذي جعَلها تُنادي بأن الإنسان كائن ثقافي بالطبع قبل أن يكون اجتماعياً أو سياسياً أو اقتصادياً، كما تقول العديد من نظريات العلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة، فمقولةُ هذه النظرية تُعطي مشروعية واضحة وصريحة لتفضيل السمع على البصر، فالسمع - لا البصر - هو الأساس الضروري لتعلّم اللغة ونشأة منظومة الرموز الثقافية عند الإنسان، أي: أن حاسة السمع هي ملكة نشأة وحماية وتطور واكتمال منظومة الرموز الثقافية عند بني البشر، مما يؤهلها للحصول على الأفضلية على البصر وغيره من الحواس الأخرى لدى الإنسان كما تُشير آيات القرآن الكريم، فالأهمية العظمى لحاسة السمع تتجلى في كونها الوسيلة الأولى لخلق عالم الرموز الثقافية المميّزة الذي يُؤهل الإنسان وحده ليكون سيد هذا العالم.

إنها نظرية تختلف معرفياً وفكرياً عن نظريات الماركسية والبِنيوية والتحليل النفسي، وكذلك عن رؤى ومنظورات مدارس العلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة التي لم تطرح منظومة الرموز الثقافية كمركزِ ثِقلٍ في طبيعة وهوية الإنسان، ناهيك عن ذكر الدور الحاسم للسمع في ميلاد منظومة الرموز الثقافية لدى الجنس البشري فقط، كل ذلك يُبرز عظَمة دور السمع التي تأتي من مصاحبته وخدماته الثمينة لأهم شيء في الإنسان، ألا وهو منظومة الرموز الثقافية.

## الثقافة الإسلامية وقضايا هذه الورقة الثقافية

نأتي الآن إلى كيفية تعامل الثقافة الإسلامية مع القضايا الثلاث المطروحة في متن هذا البحث، فالثقافة الإسلامية تُدين التعصب والفُرقة والصراع في المجتمعات البشرية والإسلامية على الخصوص، ولا غرابة أن تتبنى الثقافة الإسلامية **المنهج الثقافي** في التعامل مع تلك القضايا وغيرها، فقد رأينا أن تلك الظواهر البشرية السلبية مكتسَبة لا فطرية في الطبيعة البشرية، فهي ظواهر يتعلمها الناس في ثقافات مجتمعاتهم، ويرى المنظور الثقافي الإسلامي أن معالجتها تتم في إطار الثقافة أو منظومة الرموز الثقافية، ومن ثم يَصدق عليها القول: إن مداواة الداء تكون بمعرفة السبب لذلك الداء.

## مكوِّنات الثقافة الإسلامية

البحث عن العناصر الأساس التي وُلدت منها منظومةُ الثقافة الإسلامية؛ يؤدي إلى إبراز خمسة معالم رئيسة: مفهوم التوحيد، وحدة أصول الأجناس البشرية، المساواة بين الناس، العدل التام بين كل البشر، وتمكين كل الناس من التعلّم والعلم.

يعبّر المفكر توشيهيوكو إيزوتسو عن فكرة التوحيد في العقيدة الإسلامية فيقول: «إن الله يقوم في مركز عالم الوجود بالذات، وكل الأشياء الأخرى - الإنسانية وغير الإنسانية- مخلوقات له، وإذن فهي بحد ذاتها أدنى منزلةً منه في تراتبية الوجود بصورة مطلقة، وبهذا المعنى لا يمكن أن يوجد شيء مضاد له، وذلك بالضبط ما عنيناه بقولنا إن لفظة «الله» هي المركز الأعلى في القرآن، والتي تهيمن على الحقول الدلالية كلها وعلى النظام كله تبعاً لذلك» (إيزوتسو ٢٠٠٧: ١٢٧-٢٨).

والآيات القرآنية التي تُبرز مفهوم التوحيد المطلق لله وتُفرد ذاته بمميزاتها الخاصة؛ لا تكاد تُحصى، مثل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، أما وحدة أصول الأجناس البشرية المتنوعة، فالآيات القرآنية تركز عليها في السور الطويلة والمتوسطة والقصيرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ:٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهذه الأخيرة تُبرز المساواة بين البشر كقيمة إنسانية نبيلة ذات أولوية في منظومة قيم الثقافة الإسلامية، أما الحرص على تبنِّي قيمة العدل بين الناس في المجتمع المسلم؛ فالقرآن يستعمل كلمتيْ القسط والعدل لتأكيد أهميته في ثقافة المجتمعات المسلمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، فمكانة قيمة العلم تتصدر منظومة القيم التي ينادي بها الخطاب القرآني بطريق مباشرة أو غير مباشرة في **سدس** آيات سور القرآن الكريم.

## لا للفُرقة بين المسلمين

ففي إطار تلك المعالم الخمسة لرؤية الثقافة الإسلامية، يمكن النظر لتعامل هذه الثقافة مع الفُرقة والتعصب والصراع، فمبادئ وقيم توحيد الله ووحدة أصول البشر والمساواة والعدل؛ تساعد وتعمل على **تضامن الناس لا الفُرقة بينهم**، فاحتمال ظهور الفُرقة بين الناس والفئات والطبقات الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية؛ يُضعفها أو يستأصلها منظومة الثقافة الإسلامية **برباط الحبل الثقافي** المنادي بالقيم والمبادئ الإسلامية الموّحدة بين الناس، بِغَضِّ النظر عن فروق القبلية والعِرق واللون بين البشر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

والرباط الثقافي هو العروة الوثقى للعقيدة الإسلامية التي تقرّب بين الناس المختلفين قَبلياً وعِرقياً وفي اللون والجنس، و**تجعلهم إخوة** بانتمائهم لمنظومة القيم الثقافية للإسلام- وفي طليعتها التوحيد المطلق لله، وخَلْق البشر من نفس واحدة، ومبدأ العدل والمساواة بين الناس- فهذه العروة الوثقى للثقافة الإسلامية، هي الدواء لظاهرة الفُرقة، والشفاء من الصراع والتعصب في المجتمعات، فالوحدة الثقافية في المجتمعات؛ تقلل أو تُلغي الصراعات التي تعود إلى الاختلافات في العِرق واللون بين الناس في نفس المجتمعات.

لقد وجد الباحثون في العلوم الاجتماعية الحديثة؛ أن اشتراك الفئات البشرية في **لغة واحدة ودين واحد** يؤهلها لكي تظفر بالانتماء إلى هوية جماعية واحدة، فاللغة العربية والدين الإسلامي هما العاملان المحددان للهوية العربية الإسلامية في المنطقة العربية، فالأرضية الصلبة لبناء الهويات الجماعية للمجتمعات والشعوب والأمم؛ تكمن في الرموز الثقافية لتلك الشعوب، وفي طليعتها: اللغة والدين، فوحدة هوية شعوب العالم العربي منذ الفتوحات الإسلامية مثالٌ بارز لمدى تأثير العقيدة الإسلامية واللغة العربية في خَلق هوية جماعية تعمل في الاتجاه المعاكس لانتشار الفُرقة والصراع في المجتمعات العربية، وعليه؛ فمنظومة الرموز الثقافية الإسلامية أعطت وتعطي الشعوب العربية، القدرةَ على **تجاوز الانتماءات المحدودة والضيقة** بينهم (التي تفرضها عليهم أصولُهم العِرقية ولون بشرتهم وطول أو قِصر قاماتهم)، والرموز الثقافية لها مفعول **السحر** في قدرتها على إفساح الآفاق أمام الفئات والمجتمعات والشعوب ذات الأصول العرقية المختلفة وألوان البشرة المتنوعة؛ لكي تتجاوز حدود الانتماءات الضيقة إلى انتماءات واسعة رحبة، أي أن الرموز الثقافية تسمح للناس بأن يبلغوا عبرها **أوج إنسانيتهم** في التلاحم والتحالف والتآخي مع الآخرين، إذ تمنحهم **تأشيرة خضراء** لتجاوز حدود الفروق والاختلافات اللونية والعرقية التي يمكن أن توجد بينهم في المكان والزمان.

### لا للفتنة بين أهل الكتاب والمسلمين

ولنضرب مثلاً يتجلى فيه موقف الثقافة الإسلامية النبيل من منع الفرقة في المجتمع المسلم بين المسلمين وأهل الكتاب، إذ يُقال الكثير عن وضع الطوائف غير المسلمة في المجتمعات الإسلامية، ولا بد أن نميّز في هذا الصدد بين أمرين: ما تقوله نصوص القرآن الكريم والسنة، وما يُطبّق أحياناً في تلك المجتمعات. فالآيات القرآنية تتحدث بوضوح كامل في هذا الموضوع: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة:٥] أما المبدأ الفقهي العام في الثقافة الإسلامية فيقول: «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**»، فالثقافة الإسلامية تأمر المسلمين بالبر بغير المسلمين، والعدل في معاملتهم ومساواتهم بالمسلمين في الحقوق والواجبات التي لا تتعلق بعبادة أو فريضة، وإنما تتعلق بنظام المجتمع المسلم وحقوق مواطنيه فيه، وزيادة على ذلك؛ تسعى الثقافة الإسلامية إلى **توثيق الروابط** بينهم وبين المسلمين؛ بإنشاء علاقات أخرى لصالح التضامن لا الفرقة بين الجميع، فالتزاور والمؤاكلة والمشاربة؛ أفعال لا تكون إلا بين الأصدقاء، وتُتوج هذه العلاقات التضامنية بين المسلمين وأهل الكتاب في المجتمع المسلم برباط الزواج الذي يعتبر أوثق الروابط بين الناس (قطب ٢٠١٢: ٢٤٢).

### الثقافة الإسلامية ضد التعصب المذهبي

إن منظومة الثقافة الإسلامية الأصيلة ترفض التعصب؛ لأنها ثقافة علم ومعرفة تنبذ مصدره (الجهل) الذي هو غلوٌّ في التعلق بفكرة أو بشخص أو بعقيدة أو بمذهب، فدعا القرآنُ الرسولَ ﷺ للحوار غير المتعصب مع

المخالفين له في المجتمع المسلم: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فيُعلن القرآن أن لا مكان للتعصب بين الناس والشعوب لأنهم مكرَّمون من الخالق: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

ولننظر إلى رؤية الثقافة الإسلامية لظاهرة **التعصب المذهبي**؛ يتلخص ذلك فيما يلي: أن الرأي الفقهي له مكانته العلمية، ولمن شاء أن يأخذ به أو أن يدعو إلى غيره، فمن حق الفقهاء أن يختلفوا لتفاوت أنظارهم في شتى الأدلة، ويجب قبول نتائج هذا الاختلاف دون تشنج، ولا يجوز أن يترتب عليه شقاق ولا تحيز، وهذا التصور يلغي مشروعية وجود التعصب المذهبي في رحاب سماحة الثقافة الإسلامية، فالفقهاء والمجتهدون يحترم بعضهم البعض عند اختلاف آرائهم، ولقد رفَض الإمام مالك ابن أنس حمْلَ الناس على مذهبه في كتابه الموطأ، ويرى الشيخ محمد الغزالي أن وراء التعصب المذهبي سببين رئيسين:

١- العجز العلمي أو قلة المعرفة لدى المتعصبين لمذاهبهم، فهم «يحفظون نصاً وينسون آخر، أو يفهمون دلالةً للكلام هنا ويَجهلون أخرى، وهم يحسبون ما أدركوه الدينَ كله» (الغزالي: ٢٠١٠ - ٧٤).

٢- سوء النية، ويُرجعه الغزالي إلى «وجود أمراض نفسية دفينة وراء السلوك الإنساني المُعوج، ويغلب أن تكون: آفات الظهور والاستعلاء، أو رذائل القسوة والتسلط» (الغزالي: ٢٠١٠-٧٥).

إن منظور الثقافة الإسلامية يندد بالسببين المذكورين للتعصب المذهبي عند البعض في المجتمع المسلم، وكما رأينا، فالقرآن يدعو إلى العلم في سدس آياته، ومن ثَم، فالمتعصبون لمذاهبهم بسبب قصور علمهم أو قلة معرفتهم؛ يتصرفون هكذا؛ لأنهم يفعلون ذلك خارج هداية نور الإسلام الداعي إلى النهْل

من العلم والمعرفة، وهم خارج سور الثقافة الإسلامية عندما يتعصبون لمذاهبهم استعلاءً وتسلطاً، ولا يتحلَّوْنَ بتواضع وخشية العلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

### أسباب الصراع الفكري عند ابن خلدون

نركز هنا على الصراع الفكري الذي تتعرض له الثقافة الإسلامية اليوم في عُقر دارها، ولقد حذّر ابن خلدون من ذلك في عصره، بينما لا يكاد يتحدث اليوم أي مثقف عربي عن فكر ابن خلدون إلا بالمدح لعقله النيّر المتفتح السبّاق لعقول الحداثة الغربية المعاصرة، ومن ثم، يَزعم كثير من العلمانيين العرب أن موقف ابن خلدون سيكون سلبياً من رجوع ثقل الثقافة الإسلامية إلى حياة المجتمعات العربية، وهو استنتاجٌ جاء حصيلة جهل بالمنظومة الكاملة (تراث الجمع بين العقل والنقل) لفكر ابن خلدون الذي يدعو في (المقدمة) إلى **ضرورة محافظة المسلمين على حصانتهم في مربط فرس الثقافة الإسلامية**، وبالتالي كسْب رهان المناعة الثقافية والفكرية الأصيلة وتحاشي الصراع بينهم، ويكفي هنا ذكر تحذير ابن خلدون من مخاطر معرفة ثقافة الآخر وفكره قبل تحصين الذات في ثقافتها وفكرها في المقام الأول، ففي الفصل الحادي والثلاثين من الباب السادس للمقدمة؛ يتحدث ابن خلدون عن الفلسفة اليونانية التي كانت ذات أثر كبير على فكر الكثير من فلاسفة المسلمين ومفكريهم، فيقول: «فليكن الناظر فيها **متحرزاً**- جهده - من معاطبها، وليكن من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه، و**لا يُكِبَّنَّ أحد عليها وهو خَلْو من علوم الملّة**؛ فقَلَّ أن يَسلم لذلك من معاطبها...» (ابن خلدون ١٩٩٣: ٤٤٥).

وسيتحسر ابنُ خلدون لو علِم أن معظم العرب - مدرِّسين وأساتذة وطلبة - من خريجي الجامعات العربية في الفلسفة؛ لا يكادون يعرفون شيئاً عن علوم

الملة، وستزداد حسرتُه لو علم أن طلبة الثانوية (البكالوريا) في موطنه (تونس)؛ لا يكادون يتعلمون شيئًا عن الفلسفة الإسلامية وعلوم الملة، بينما هم يَدرسون مادة الفلسفة الغربية لما يقرب من ٧ ساعات أسبوعيًا، ونستنتج من كلام ابن خلدون أن التلاقح الفكري الإيجابي بين مثقفي ومتعلمي الثقافات المتنوعة؛ لا يَحصل إلا بشرط امتلاء الإنسان في المقام الأول من لغة وفكر وثقافة مجتمعه وحضارته، وتلك هي أبجدية التحاور الحكيم مع الآخر؛ التي طالما يَضل عنها كثير من المثقفين والمتعلمين العرب المعاصرين في المغرب والمشرق، فتصبح الصراعات الفكرية والثقافية في المجتمعات العربية الإسلامية ظاهرةً متفشية تؤدي إلى الانقسام لا إلى التضامن.

ونحن هنا نطبق هذه المقاربة الخلدونية على الضرر الذي أصاب ويصيب لغةَ القرآن (اللغة العربية) من جَرَّاء احتكاك الشعوب العربية المعاصرة بالشعوب الغربية؛ بسبب تعلّم الأولى للغات الثانية في حالات كثيرة؛ **أكثر** من تعلّمها للغتها الأم (العربية)، ولتسهيل تشخيص حصيلة هذا التفاعل في المجتمعات العربية، نُلقي الضوءَ على **تصدّع قطب اللغة** في منظومة الهوية العربية الإسلامية (اللغة العربية والدين الإسلامي، دين الأغلبية من العرب)، ونرغب في معرفة **معالم الصراع اللغوي** نتيجة لما حدث وما يحدث للغة العربية من أثر الاستعمار الفرنسي بالمغرب العربي، والاستعمار الانجليزي بالمشرق العربي، واستمرار الاحتكاك معهما.

## التصدع الثقافي والصراع بين النُّخَب العربية

ليس من المبالغة القول إن هناك اختلافات في الرؤى الثقافية للنخب السياسية والثقافية المهيمنة في الوطن العربي، وتتلخص هذه الاختلافات في انقسام تلك النخب إلى **صنفين رئيسين**:

١ - النخب السياسية الثقافية الحمّالة للثقافة الغربية لغةً وفكراً وثقافة لإدارة الشأن الخاص والعام في المجتمعات العربية، ويأتي العلمانيون واليساريون في الطليعة.

٢ - النخب السياسية والثقافية العربية المؤمنون بمشروعية التحرر - في الفكر والثقافة واللغة - من وزْر الاستعمار الغربي، وتأسيس مجتمعات عربية تعتمد أولاً على مكوّنات هويتها اللغوية والثقافية، فتُعطى الأولوية فيها إلى **العقيدة الإسلامية واللغة العربية** وثقافتهما، والرؤية الحضارية المنبثقة عنهما.

وهنا يتفق المفكر التونسي الأستاذ «هشام جعيط» أكثر مع أصحاب الرؤية الإسلامية؛ منه مع العلمانيين في تونس، والذين طالما يهمش الكثير منهم مركزية موقع الهوية العربية الإسلامية في تاريخ وحياة المجتمع التونسي منذ الفتح العربي الإسلامي، فيؤكد «جعيط» أن هوية المجتمع التونسي هوية عربية إسلامية بامتياز فيقول: «لا ينبغي خداع النفس بالنسبة لإمكانية استمرار الحضارة الفينيقية والثقافة اللاتينية والآثار اليونانية على الأرض التونسية؛ فالإسلام استطاع القضاء نهائيا على الكل، فإفريقية (تونس القرن الثامن) كانت كما هي اليوم: أي بلد مسلم عربي» (بن حتيرة ٢٠٠٨: ٢٠).

ولاشك في أن ابن خلدون سيقف إلى جانب نخب الفكر الإسلامي الأصيل، التي تدافع عن تأصيل قطبيْ الهوية العربية الإسلامية في اللغة والفكر والعقيدة؛ لأنه قد حذر من معاطب الاستلاب الفكري للفيلسوف والمثقف والمفكر المسلم، ولو كان موجودا اليوم؛ لحذر أيضاً وبقوة؛ من معاطب الصراع أو الاستلاب اللغوي الذي تعرفه المجتمعات العربية، وفي طليعتها المجتمعات المغاربية.

ولتشخيص معالم هذا التصدع اللغوي والصراع الناتج عنه في المجتمعات العربية؛ أنشأنا بعض المفاهيم لقياس هذا التصدع اللغوي بطريقة مجسمة شبه كَميّة في المجتمع التونسي كعينة للمجتمعات المغاربية على الخصوص، ونقتصر هنا على ذِكر مفهومين هما «**الثنائية اللغوية الأمَّارة**» و«**التعريب النفسي**»، فالثنائية اللغوية الأمَّارة جعلَت الناس مقصرين في الذود عن لغتهم الوطنية (العربية)،غير مبالين لعدم استعمالها في شؤونهم الشخصية فيما بينهم وفي مؤسساتهم؛ حتى أصبحَت عندهم **لغة ثانية أو ثالثة**.

أما التعريب النفسي فهو أن تكون للمواطنين العرب **علاقة حميمة** مع اللغة العربية، بحيث تكون لها المكانة الأولى في قلوبهم وعقولهم واستعمالاتهم، فيغارون عليها ويدافعون عنها بكل حماس في الدوائر الخاصة والعامة في المجتمعات العربية، فمن ناحية، تفيد الملاحظات الميدانية للسلوكيات اللغوية التونسية انتشاراً كبيراً للثنائية اللغوية الأمارة، ومن ناحية ثانية، لا يكاد المرء يجد حضوراً لظاهرة التعريب النفسي منذ الاستقلال ١٩٥٦.

### صراع اللغة العربية في المغرب العربي

بكل المقاييس لا يجوز اليوم مساواة الحال المتردي للغة العربية في المغرب العربي بنظيره في المشرق العربي، ويكفي لبيان ذلك: تقديم معطيات ميدانية من السلوكيات اللغوية في الجزائر والمغرب وتونس ذات العلاقة بتفضيل الأكاديميين المغاربيين استعمال **اللغة الفرنسية عِوضاً عن اللغة العربية**.

حضرنا ندوةً حول نمو المدن المغاربية عبر العصور في ٢٦ـ ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٥، أقامها المركز الأمريكي للدراسات المغاربية بتونس CEMAT ، كانت أغلبية المشاركين من الجزائريين والمغاربة والتونسيين، اختاروا اللغة

الفرنسية في مداخلاتهم؛ عدا مشارِكة مغربية وحيدة **اختارت اللغة العربية** لإلقاء ورقتها، وقد أثار ذلك **صدمة واستهزاء** من زملائها وزميلاتها المغاربيين، توحي بعدم استحسان الأمر بين معظم هؤلاء، وربما اللّوم على تجاسر المشارِكة المغربية على استعمال اللغة العربية في هذه الندوة، علماً بأن المنظمين الأمريكيين للندوة وافقوا على أن تلقي المشارِكة المغربية بحثها باللغة العربية.

إن رد فعل هؤلاء الأكاديميين المغاربيين في رفض استعمال اللغة العربية في هذه الندوة؛ يفسره منظورُ علم الاجتماع: بأن صدمة وحيرة المغاربيين؛ أتت كنتيجة لغياب استعمال اللغة العربية كلغة أولى في الندوات والمؤتمرات المغاربية الصرفة، **أي أن** جُل المثقفين والمتعلمين المغاربيين **لم ينجحوا** في عهد الاستقلال **في تطبيع علاقتهم باللغة العربية** – لغتهم الوطنية الأولى – بحيث تصبح هي العرف اللغوي التلقائي للتواصل بين الأكاديميين والباحثين في هذه المجتمعات مثلما هو في المشرق العربي، فلو نُظمت هذه الندوة في القاهرة مثلاً، لكان تقديم البحوث باللغة العربية أمراً عادياً ومنتظراً؛ لا انحرافا ونشوزاً كما رأى الأكاديميون المغاربة، يشير ذلك إلى مدى استمرار رواسب الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي (**التخلف الآخر**) بين النخب الثقافية في هذه المجتمعات بعد عقود من الاستقلال، وهو وضعٌ يكرّس الاستلابَ اللغوي والثقافي بين النخب المغاربية، الأمر الذي يقود إلى **صراع** ليس مع اللغة العربية فحسب، بل ومع الثقافة الإسلامية، نظراً للعلاقة العضوية الحميمة بين الدين الإسلامي واللغة العربية بين العرب المسلمين (الذوادي: ٢٠١٤: ١٩-٢٧، ٢٠٠٢).

**التوصيات لمعالجة القضايا الثلاث:**

ألقى تحليلنا لقضايا هذا البحث؛ أضواء على أسباب الفرقة والتعصب والصراع، ومن ثم، فالتوصيات والمقترحات العلاجية لهذه الظواهر الثلاث في المجتمعات الإسلامية ينبغي أن تتضمن في المقام الأول: **القضاء على أسباب تلك الظواهر** في تلك المجتمعات، بواسطة رؤيةِ نظرية الرموز الثقافية المبيّنة في متن هذه الورقة، ولنبدأ بمعالجة آخر القضايا المطروحة؛ ألا وهي مسألة الصراع الفكري في مجتمعات المغرب العربي على الخصوص في خريطة العالم الإسلامي المترامي الأطراف، فابن خلدون، كما رأينا، ينصح **بالتمكُّن أولاً في علوم المِلة** قبل تعلّم الفكر الأجنبي، ويعني هذا: أن أجيال المجتمعات الإسلامية المعاصرة؛ يجب أن تتشبع بالرصيد الفكري للثقافة الإسلامية الواسعة قبل أن تنفتح على الثقافات الأخرى وأولها الثقافة الغربية، فاستراتيجية منظومة الرموز الثقافية؛ تعطي **مناعة ثقافية** للعقل المسلم الذي يحمي نفسه مما أطلق عليه ابن خُلدون: **المعاطب**: «فليكن الناظر فيها متحرزاً جهده من معاطبها، وليكن من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه، ولا يُكِبَّنَّ أحد عليها **وهو خلْوٌ من علوم الملّة** فقَلَّ أن يسلم لذلك من معاطبها...». (ابن خلدون ١٩٩٣: ٤٤٥).

ومن جهة أخرى، فمعالجة المعاطب الفكرية ترتبط بها معالجة معاطب **الصراع اللغوي** في المجتمعات المغاربية على الخصوص كما بيّنا، ويتمثل ذلك الصراع في تلك البلدان؛ فيما سميناه: **التخلف الآخر**. فمعالجته تتطلب أن يتعلم ويتقن سكان المغرب العربي لغاتهم الوطنية قبل الفرنسية وغيرها، ويعتزّوا بالعربية والأمازيغية قبل الفرنسية، فمفتاح العلاج في نظرية **أن اللغة هي أم الرموز الثقافية**، فتمكين اللغة العربية – كلغة وطنية أولى في تلك المجتمعات

- من مكانتها الطبيعية والسليمة؛ يعني كسْب رهان التخلص من الصراع اللغوي الذي لا يزال شديداً بعد أكثر من نصف قرن من استقلال تلك الشعوب. وبالتعبير الخلدوني، فليكن تعلّم اللغات الأجنبية بعد الامتلاء من تعلّم العربية والأمازيغية في مجتمعات المغرب العربي، فالنجاح في معالجة المعاطب على الجبهتين الفكرية واللغوية؛ يمنح شعوب المغرب العربي المناعة اللغوية الثقافية ضد الصراع الفكري واللغوي.

أما بالنسبة لمعضلة التعصب كظاهرة عامة أو خاصة - كالتعصب المذهبي- فإن رؤية الثقافة الإسلامية لا تَقبلها وإنما تُندد بها(كما نقلْنا عن الشيخ محمد الغزالي في مناقشته للتعصب المذهبي عند الفقهاء)، فالعلاج للتعصب المذهبي يتلخص فيما يلي: أن للرأي الفقهي مكانته العلمية، ولمن شاء أن يأخذ به أو يدعو إلى غيره، فنصيحة الرؤية الإسلامية بهذا الصدد تناشد أصحاب التعصب المذهبي أن ينبذوا تعصبهم، لأنه يتناقض مع رحابة روح العلم والمعرفة في المنظور الإسلامي، وهذا ما يؤكده وجود وتعايش المذاهب الفقهية الكبرى في العالم الإسلامي(الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية)، فالتفقه في الدين يَحمي الفقهاء من التعصب المذهبي؛ لأن أساس التعصبِ الجهلُ، والإسلام يدعو للعلم والمعرفة، وتُفيد معالجة التعصب المذهبي في أنها تنضوي تحت منظومة نظرية الرموز الثقافية، حيث يمثل العلم والمعرفة عنصرين رئيسين في خريطتها.

## الخاتمة

نشير إلى معالم النصيحة العلاجية لظاهرة التفرقة؛ **فالمنظور الإسلامي** للتعامل معها هو منظور **رموزي ثقافي في الصميم** حسب نظرية الرموز الثقافية؛ فالمكونات الثقافية الكبرى للدين الإسلامي هي: (التوحيد المطلق لله سبحانه وتعالى، وحدة أصل الجنس البشري، والمساواة بين الناس، العدل التام بين البشر، وتمكين جميع الناس من التعلّم والعلم)، فهذه المبادئ الإسلامية، تنصح وتناشد كافة المسلمين **بالتضامن والأُخوة**، وبالتالي بنبذ الفُرقة والانفصال، بل رأينا أن هذه المبادئ الثقافية الإسلامية ترفض الفرقة حتى بين أهل الكتاب والمسلمين، فهي إذن **مبادئ إنسانية** في المقام الأول تساوي بين كل البشر بِغض النظر عن أصولهم العرقية وألوان بشرتهم واللغات التي يتحدثونها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾؛ فتبنِّي المسلمين المعاصرين لتلك المبادئ الرمزية الثقافية بإخلاص وتقوى؛ هي **النصيحة المُثلَى والعلاج السوي** اللذَين يسديهما الباحث إلى المسلمين لكي يتحاشوا الفرقة؛ ليس بينهم فحسب، وإنما بين المسلمين وغيرهم من الشعوب من أهل الكتاب والصابئين وسواهم من بني آدم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [المائدة:٦٩].

## المراجع

- أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (١٩٩٣)، **مقدمة ابن خلدون**، بيروت، دار الكتب العلمية.
- إيزوتسو، توشيهيكو (٢٠٠٧) **الله والإنسان في القرآن: علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم**، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.
- الذوادي، محمود (٢٠٠٢) **التخلف الآخر: عولمة أزمة الهويات الثقافية في الوطن العربي والعالم الثالث**، تونس، الأطلسية للنشر.
- الذوادي، محمود (٢٠١٤) تصدع الهوية العربية الإسلامية في المجتمع التونسي، **الحياة الثقافية**، العدد ٢٤٨، فبراير ٢٠١٤.
- الذوادي، محمود (٢٠١٠) **المقدمة في علم الاجتماع الثقافي برؤية عربية إسلامية**، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- الذوادي، محمود (٢٠٠٦) **الثقافة بين تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظور العلوم الاجتماعية**، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة.
- الغزالي، محمد (٢٠١٠) **دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين**، القاهرة، دار الشروق.
- ابن حتيرة، صوفية (٢٠٠٨) **الجسد والمجتمع: دراسة إنتروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد**، بيروت، الانتشار العربي.
- قطب، محمد (٢٠١٢) **شبهات حول الإسلام**، دار الشروق.

## المراجع الأجنبية

- Dhaouadi ,M.(2013) *Cultural Sociology within Innovative Treatise: Islamic Insights on Human Symbols*, Lanham, Press University of America.
- *Encyclopedia of Sociology* (1974), The Dushkin Publishing Group, Inc., Guilford, Conneticut.
- Turner, J.H.(2001) *Handbook of Sociological Theory*, New York, Kluwer Academic.
- White,L (1973) *The Concept of Culture*, Edina, MN, Alpha Editions.